

## في المذهب الرضوي

للأستاذ زكي طلحات

مفتش التثليل بوزارة المعارف

—•••••—

و كتبنا في العدد الماضي تقدماً ( لفرق الطريق ) وهي مسرحية تزرع نزعاً رمزياً في مباحها ومعناها كشيء الأستاذ بشر فارس جاءت تحفة نيرة رفيعة . ومقال اليوم بحث في الرمزية على القدر الذي لا تضيق به صفحات الرسالة . ركي

الرمزية إحدى الاتجاهات النفسية في الإفصاح والتبيين ، فهي وسيلة من وسائل التعبير عن خلجات النفس تتجاوز الرمز بشيء إلى شيء آخر ، إلى إظهار الغامض والمبهم والتائه في مغلفات الروح ، وتسجيل أسداء العقل الباطن

### الرمزية عريقة في الإنسان

ليس الرمز بالشيء الجديد في نتاج الشعور الإنساني . ولورجعنا إلى الوراثة نتأثر مصدر الرمز لوجدناه بعيداً في أعوار الشعور الإنساني منذ القدم ؛ فقد سجل الإنسان الفائر في أجواف الماضي بالنقش على الحجر والحفر على جدران المغاور ، خلجات نفسه ونجي التائه فيها ، بعد أن أعياه الفكر في الكشف عنها ومعرفة بواعثها ، فجاءت رموزاً تومي ولا تفصح الإفصاح كله عن أسداء النفس ولوامعها . بل من الرمز انبثقت العقائد لدى الزوج . وما سائر طرائق الوثنية إلا رموز متتابعة لحيرة النفس أمام عجزها عن تفهم المظاهر الطبيعية الغامضة وقصورها عن إدراك أسرار القوى الخفية كالقدر والحياة والموت والبعث

فلما كد الدهن مستنبطاً أوضاعاً للحياة مصطنعاً دعائم المدنية ، وتقدم شأن العلم فحسر اللثام عن حقائق لم تتج معرفتها للأولين ضمعت النزع إلى الرمز بعض الشيء ، ولازمها الضعف منزلاً بها الشحوب والهزال كلما دق الفكر في وضع الصيغ واستنباط القيم ، وكما كشف العلم عن حقول جديدة خفية من مظاهر الكون . وسرعان ما شغل الإنسان باللموس من الأشياء عن التفكير وراء اللبس والحس ، وصارت خلجات النفس تصدر مصنوعة في قوالب ، فكانت ( كلاسيكية ) التفكير والأدب والفن وقويت دعوة العلم بعد أن هيمن الإنسان على القوى

الطبيعية فنظم عملها ، وسخرها لمنفعته ولرفاهيته هازئاً بما راعه من جيروتها الأول ؛ ولكن ليتلقى سخرتها أحياناً وهو كظيم حينما يماودها هذا الجبروت ، وهو طبيعة فيها ، فبنتق قيادة من يده وتطني على قدرته . وبلغت هذه الدعوة أوجها في أوائل النصف الأخير من القرن الماضي بعد أن سخر البخاري وسائل النقل وإدارة الآلة ، وجاء العلم ( بالمعمل ) بفسر الغوامض وبمحلل المركبات فقويت نزع الإنسان إلى الأخذ بما ينتجه التحليل ، وصار العقل الصرف هو الميزان لديه في الحكم على كل ما يقع عليه الحس وما لا يقع ، فاستنبط الفكر متأثراً ( بالمعمل ) ، واقمية الأدب والفن ، وهي النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمرئي الظاهر من الأشياء ، وبذلك كمل طغيان المحسوس على ما وراء الحس

بيد أنه على الرغم من طغيان المحسوس على ما وراء الحس فإن النزع الرمزية لم تحت في النفس ، بل كانت لها يقظت خلال هذه المراحل المتوالية من التقدم التقني ، ترفع صوتها كلما راعها القصور عن إدراك كته الحالات التي تترضاها

وما ( رومانسية ) الأدب والفن إلا مظهر شاحب من هذه الحالة ، وهي نزع حطمت في وقت ما القوالب والصيغ الكلاسيكية التي هي من فعل الفكر الخالص ، وأرسلت من القلب خلجة إحساسية مترعة ، وكان ذلك في أواخر القرن السادس عشر في إنجلترا ، ثم في أوائل القرن التاسع عشر في فرنسا

وليس هذا بالأمر العجيب المستغرب ، فالإنسان يحيا بفرائره أحياناً أكثر مما يمشي بعقله الخالص . وآية ذلك أن الإنسان ما برج يخاف الموت وهو موقن بعقله أنه نهاية محتمة على كل حي وكان بعد ذلك أن أفلس العلم في كثير من المسائل الحيوية على الرغم من اختراع الكهرباء وتنظيم شؤون الحياة ، فقلل العلم من غلوائه في تفسير كل شيء ، وأخفت من صوته في دعواه الكشف عن كل غامض ، وسرعان ما استيقظت نزع الرمز من جديد ، وبرز لها طابع في أدب أهل الشمال من أوروبا ، وهم قوم يسكنون بلاداً يخفق الضباب معالمها في وضوح النهار ، وتطاني قتمة السحب على زرقة السماء طوال العام إلا أشهراً معدودة

### هزريك إبسن وشعراء الرمزية

فطلع ( إبسن ) — وذلك في أقصى الشمال ببلاد النرويج — بروايات رمزية أهمها ( براند ) و ( بيرجنت ) ، وانحدرت الرمزية

نفس المين الذي أخذ منه الأدب الأوربي ، ألا وهو النفس البشرية . وما برح البحث والاستقراء بتعميقان مخلفات الأدب العربي والاسلامي ، وهي مخلفات ، وبالأسف ، ما برحت مشتتة في دور الكتب ما بين أوروبا وأمريكا ليلقيا كل حين ضوءاً جديداً عليها هذا والرضية كما أسلفنا شيء كامن في النفس ، تبدو صريحة كلما استشفتها الرغبة الذهنية إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس ، وهو الباطن الغائر في أعماق النفس ، أو كلما أحست النفس بهزيمة العقل أمام الغامض من الأمور . وهانحن أولاء في القرن العشرين ، وهو قرن أصبحت للعلم فيه دولة ، ومع ذلك فقد قامت نظريات جديدة تدحض نظريات علمية وفلكية انفقت عليها الآراء وقطعت بصحتها منذ مئات السنين . وهناك يديهيات عديدة ما برح للعقل فيها حيرة . ولم يبالغ (بوانكاريه) حيناً قرر أن تقدم العلم تقدم آلي عجيب ، إلا أنه عجز عن أن يكشف الكشف الكامل عن كثير من الحقائق

#### الرمزية في الأدب العربي المستحدث

أما ما يحضر أذهاننا من آثار الرمزية في الأدب العربي المستحدث فينحصر في كتابات (جبران خليل جبران) وهو لبناني المولد عاش دهوراً طويلاً من حياته في المهجر الأمريكي فتأثر بكثير من كتاب الغرب ، واستقامت في كتاباته طريقة رمزية تخاطبها نزعة رومانسية . وقرأنا بعد ذلك شعراً رمزياً في الأداء للدكتور بشر فارس وذلك منذ عشر سنوات في مجلة المنقطف

وفي مؤلفات (توفيق الحكيم) نلمح الرمزية لامة في بعض ما أخرجه للمسرح ، ولا سيما في روايته (شهر زاد) . وليس في هذا ما يبعث على العجب ، فلتوفيق الحكيم نزعة صوفية أصيلة ، كما أنه أحسن استيعاب مسرحيات الايطالي (بيراندللو) ، وهو أبرز مؤلفي المسرحية الرمزية في هذا العصر ؛ وتفهم مسرحيات الفرنسي (لونورمان) ؛ وليست مؤلفات (فرويد) و (بيرجسون) مما لم يحسن مطالعتها

فبشر فارس وتوفيق الحكيم يفتقران من مصدر واحد ، الأول يكتب مثبتاً بما تلقنه ، والثاني يؤلف بطبعه وخياله ، إلا أن لكل منهما طرائقه في التعبير عن رمزيته ، وكلاهما يمشي بذهنه في أوروبا ويحيا بجسمه في القاهرة . زكي طليماني .

إلى البلجيك وهولندا ، فلاتت مستقراً خصباً إذ الطبيعة في تلك البلاد تبدو كأنها غارقة في التفكير والتروى والراجعة ، وسرت عدوى الرمزية إلى فرنسا فطبعت أديها وفيها ردحاً من الزمن تحتفظ منه واعية الأدب بأسماء (فيرهارين) و (رودنيانخ) و (فان لبرج) و (رامبو) و (فيرلين) و (مالارميه) في الشعر ، ثم (ماترنلنخ) في الروايات التمثيلية . وكانت الحقبة الأخيرة من القرن الماضي عصر ازدهار للأدب الرمزي في فرنسا ، وكانت الحركة في صميمها نزعة إلى التحرر من أدب الواقع والملموس إلى ارتياد آفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتأثر من الخلجات في منعطفات الروح ومثالي المادة ؛ وهاديهم في البحث والتنقيب الإحساس المرفه والإدراك المحض (والتخيل المنسرح) ، وصاغوا ما انتهوا إليه في أسلوب طريف مترع بالأخيلة مشرق بالروحانية . إلا أنه كان للبعض منهم شطحات في الخيال ، وجولات بعيدة فيما وراء المادة ، وغوص عميق في متاهات القلب لم يخرجوا منه بكثير يؤبه له ولا يتسع هذا المقام للإحاطة بالرمزية في آداب الأمم الأخرى

#### الرمزية في الأدب الإسلامي

أما في العربية الاسلامية ، فالصوفية أئين مظاهر الرضية . إلا أن الرمزية كانت لدى العرب علماء وليست فنناً ؛ وبين العلم والفن فارق معروف ، ولذلك لم تفرض طابعها على كثير من الأدب الاسلامي ، وإن استقامت لها طريقة في شعر (الخيال) وأمثاله ، ومن أخذ عنهم ، أو نحوه نحوه والرمزية عند (الخيال) ضرب من الغورة الحسية حلت فيها عبقة روحانية

ولعل السبب في أن الأدب العربي لم ينحرف إلى الرمزية النامضة في كثير من نتاجه ، ويخرج عن الواقعية و(الكلاسيكية) يرجع إلى الطبع البدوي الذي يميل إلى الوضوح والبساطة ، وإلى طبيعة البلاد التي نشأ ودرج وشب فيها ، حيث الشمس تسطع من أول النهار إلى آخره في سماء صافية متدخلة في التنايا والشتوق ، كاشفة عن ظواهر الأشياء في جلاء ساطع ، كما أن الأدب ، الإسلامى لم يخرج عن الأوضاع الذي أورثه إياها الأدب الجاهلي ، وانتصر أمر التوايد فيه على التنميق في الصيغ الشكلية ويقيني أننا نتحرج إذا قضينا بأن الأدب العربي أو الاسلامي لم يمرقاً الرمزية في ترانها الكبير ، إذ أن معين هذين الأديين هو